مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies)
جامعة وهران02/ المجلد 11 ع 03، 16/ 06/ 2022
ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

الفكر الصُّوفي في فلسفة أبي حامد الغَزَّالي

The mystical thought in the philosophy of Abi Hamid Alghazali

د. حمادي النّوي Dr. Noui Hammad noui.hammadi@yahoo.fr	فلسفة	كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة طاهري محمد بشار- الجزائر

DOI : 10.46315/1714-011-003-007

الإرسال: 24/ 01/ 2021 **القبول**: 05/ 04/ 2021 **النشر**: 16/ 06/ 2022

ملخص: لقد عُرفت الحضارة الإسلامية بثرائها الفكري والعلمي وخصوبتها الدينية والفلسفية وتعدد علمائها وفلاسفتها، لذا يعد حجة الإسلام أبي حامد الغزالي من الفلاسفة الذين كان لهم التأثير البارز في إظهار أصالة الفكر الفلسفي الإسلامي، حين أدرك أن منهج التصوف هو نظرية ذوقية في المعرفة وطريقة روحية تؤدي إلى تحقيق السعادة الأبدية والارتقاء الأخلاقي والابتعاد عن التعصب الديني والعقلي، في هذا المقال نحاول إبراز خصوصية الفلسفة والتجربة الصوفية التي تميز بها الغزالي في تحصيل العلم اليقيني، وتبيان معنى قيم التعايش والتسامح وتجلياته في فكره الصوفي، ومن ثم ترسيخ ثقافة الحوار الحضاري المنفتح والوسطية في بناء المواقف الفكرية والفلسفية البنّاءة.

كلمات مفتاحية: التصوف؛ الغزالي؛ الفكر الإسلامي؛ الفلسفة الصوفية؛ التعايش والتسامح.

Abstract: Islamic civilization has been known for its intellectual and scientific richness, religious and philosophical fertility, and multiplicity of its scholars. And its philosophers, so Hojjat al-Islam Abu Hamid al-Ghazali is one of the philosophers who had a prominent influence in showing authenticity Islamic philosophical thought, when he realized that the method of Sufism is a taste theory of knowledge and a spiritual way that leads to Achieving eternal happiness, moral advancement, and avoiding religious and mental fanaticism, in this article we try to highlight The peculiarity of philosophy and mystical experience that distinguished Al-Ghazali in the acquisition of certain knowledge, and the clarification of the meaning of the values of coexistence Tolerance and its manifestations in the Sufi thought, and then the consolidation of the culture of open civilized dialogue and moderation in building Constructive intellectual and philosophical positions.

Keywords: Mysticism; Al-Ghazali; Islamic thought; Mystical philosophy; Coexistence and tolerance.

1- مقدمة:

يندرج الموضوع ضمن ميدان الفكر الفلسفي الإسلامي، فالتصوف في حضارتنا الإسلامية يعد رمزا للحياة الروحية التي تجلت معالمه في الزهد والارتقاء بالإنسان إلى أعلى مراتب الكمال الروحي والأخلاقي، ليصبح سلوكا عمليا قويما في مجال المعرفة أو في تأسيس ثقافة الحوار وبناء منظومة قيمية تحكم الأفراد والمجتمعات. فالفكر الصوفي في تراثنا الإسلامي كان نابعا في حقيقته من

القرآن الكريم والسنّة النبوية، وتجلت أهميته في ترسيخ قيم التعارف والحوار ونبذ العنف والتطرف الذي يوسع دائرة الصراع بين الحضارات والثقافات المتجاورة. فكان "الإمام الغزالي" أحد الأئمة والفلاسفة المسلمين الذين بحثوا وعايشوا هذه التجربة الصوفية، وحاول تأسيس فلسفة صوفية تستند في مقوماتها وخصوصياتها على روح الإسلام وقيمه الأخلاقية. أما الإشكالية التي تطرحها هذه الدراسة المتواضعة والتي نحاول معالجتها فترتبط بتحليل الفكر الصوفي وإبراز أهم تجلياته في فلسفة أبي حامد الغزالي انطلاقا من انتمائه الحضاري الإسلامي الذي جعل من التصوف منهجا فكريا وفلسفة روحانية، فما هي مقومات الفلسفة الصوفية عند الغزالي؟ وكيف عايش التجربة الصوفية؟ وإلى مدى كان الغزالي متصوفا مدافعا عن قيم التعايش والتسامح الحضاري؟

والإجابة المؤقتة في تصورنا تكون كالآتي:

- حضور الفكر الصوفي وانتشاره بين المسلمين والدعوة للتمسك بأحكام الدين والتصدي للترف الحضاري والانهيار الأخلاقي، وظهور بعض التيارات الفكرية والفلسفية وأهل الأديان.

- التواضع الفكري والتحلي بالقيم الأخلاقية المتجلية في فلسفة الغزالي الصوفية وغرس قيم الانفتاح والتسامح والتواصل مع الآخر وتأسيس ثقافة السلم والحوار الحضاري.

- الأهمية الموضوعية والمنهجية في بناء المواقف الفلسفية من خلال استخدام العقل واحترام الطبيعة الإنسانية.

- دعوة الغزالي إلى الابتعاد عن الغلو والتطرف الديني والاعتدال في الأفكار والمواقف والجمع بين ما هو ديني وعقلي في النهضة بالمجتمع الإسلامي. وقبل الدخول في إثبات الفرضيات السابقة المقترحة التي سبق ذكرها في بداية الإشكالية نقول عنها أنها مؤقتة وسيتضح ذلك لاحقا، لذلك جاءت هذه الدراسة لغرض تحليل وتبيان طبيعة الفكر الصوفي عند حجة الإسلام أبي حامد الغزالي. ناهيك عن توضيح المحتوى المفهومي والفلسفي كل ذلك سنتناوله وفق منهجية تحليلية، مستخدمين في ذلك جملة الأفكار والمواقف الفلسفية المنسجمة وطبيعة الموضوع المعالج.

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

2- العرض:

3- مقومات ورو افد التصوف في فلسفة الغزالي

بعد أن تعاظم القرآن الكريم والسنّة النبوية في نفوس المسلمين وأصبحا يمثلان مصدرا للتشريع الإسلامي وتلقي العلم والمعرفة الصحيحة التي لا تحتاج إلى نظر أو تأويل عقلي، والاكتفاء بما هو ظاهر من النص الشرعي وفهمه، أي بالرجوع إلى نصوص الوحي التي يرون فيها العلم اليقيني للإجابة عن القضايا والتطورات الحاصلة في المجتمع الإسلامي، فقد نشأ التصوف وانتشر بين المسلمين للتمسك بفضائل وأحكام دينهم الحنيف، وأيضا كرد فعل لتيار الترف الحضاري والانحلال الأخلاقي وانهيار القيم مع نهاية القرن الثاني الهجري، وظهور بعض المذاهب الفكرية والفلسفية والديانات كالمجوسية واليهودية والنصرانية التي حاولت التأثير على المسلمين وتحريف مذهبهم السنّي، "فكثر الزهاد (الصوفية) الذين غالوا في الزهادة في الدنيا، والبعد عن نعيمها، وسرى إلى المسلمين من فكرتي الإشراق الفلسفي وفكرة الحلول الإلهي في النفوس البشرية وكذلك وحدة الوجود، واختلطت تلك الأفكار والمنازع، فكان من اختلاطها التصوف الذي ظهر واشتد عوده في القرن الرابع والخامس الهجريين".(عبد الفتاح. م، 2000، ص9).

فقد كان لمجيء أبي حامد الغزالي (505/450 ه) أثره البارز في غرس قيم التعايش والسلام في تراثنا الصوفي، وجاء في قول الدكتور القرضاوي عنه: "سجل الغزالي قصة حياته الفكرية والنفسية بقلمه البليغ، تسجيلا مؤثرا بما فيه من وضوح وصدق في كتابه الفريد "المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال" الذي يعد على وجازته من أهم ما خطه قلم الغزالي، وما أنتجه فكره المعطاء، والذي يقول عنه أستاذنا المدعو له بالرحمة الدكتور محمد يوسف موسى: "هذا الكتاب لا نعرف أي مفكر أو فيلسوف كتب مثله أو ما يدانيه، فهو اعترافات بخلجات نفسه، وحركات قلبه وعقله، حتى وصل مما أراد إلى خاتمة المطاف" (الشامي.أ، 1993، ص37/36)، بالإضافة إلى ذلك ألف كتابه "مقاصد الفلسفة": "ولو لم يؤلف الإمام الغزالي غيرها، لبقي هو الغزالي العملاق، الصوفي، الفيلسوف بطابعه وسماته وشخصيته، لا ينقص شيئا... ولكنه لو لم يؤلفها، لما كان هو الإمام "الغزالي" صاحب الأثر الخالد على الدهر". (الشامي. أ، 1993، ص37)، اشتغل بالتدريس والإصلاح وتطهير التصوف من الأفكار الدخيلة كفكرة الحلول والوحدة عند سابقيه والرجوع به إلى أصوله الإسلامية الصحيحة، و"كذلك شاءت إرادة الله أن يظهر مصلح آخر أخذ على عاتقه تنقية الفكر الإسلامي عامة

والتصوف خاصة من الأفكار الدخيلة"، (الغزالي. أ، 1964، ص9)، فقد أصبح التصوف على المنهج السُنّي وجعله نظرية ذوقية في المعرفة وطريقة روحية تؤدي إلى السعادة الأخروية، وقد لقي هذا النهج الصوفي قبولا حسنا عند أهل السُنّة والجماعة من المسلمين الذي يسلكه كل عارف بالله تعالى ويسعى لطلب الحقيقة التي يزول معها الشك والارتياب، قال الغزالي في كتابه (إلجام العوام عن علم الكلام، (1994، ص43/42):" اعلم أن الحق الصريح الذي لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف، أعني مذهب الصحابة والتابعين".

لقد مرّ الغزالي بتجربة عصيبة جعلته يُنّظر ويدافع بقوة عن التصوف السُنّي ومحاولة الرد على الفلاسفة والمتكلمين بعد أن طرحت بعض الإشكاليات الفلسفية والكلامية على مستوى الخطاب الفلسفي السائد، وبعد أن تبيَّن عجز العقل واستخدم آلية العقل والمنطق وأسبقيتهما على النص الديني أحيانا على الخوض في المسائل الإلهية، "نعم إن مسلك الغزالي في كتاب التهافت قائم في معظمه على التشكيك والنقد، ولكن التشكيك عمل علمي له قيمته، فإن بعض الفلاسفة يذهب إلى القول بأن: "وظيفة الفلسفة لا تقوم في وضع حلول للمشاكل، بل تقوم في تفنيد الحلول الموضوعة للمشاكل" (الغزالي. أ، 1972، ص23).

كان الإمام الغزالي إذن شغوفا بالتوّغل في المشكلات الفلسفية الكبرى التي كانت منطلقا له في التوجه نحو التصوف والزهد، لقد حدثنا الغزالي عن نفسه، قال: "إنه قد عكف - قبل أن يناقش الفلاسفة - على دراسة الفلسفة، حتى وقف على غورها وغائلتها، وأدرك من أسرارها ودخائلها ما لم يفطن له الفلاسفة أنفسهم، وأراد أن يقيم على ادعائه شاهدا عملياً، فألفّ كتابه المسمى (مقاصد الفلاسفة) صوّر فيه الفلسفات: المنطقية، والطبيعية، والإلهية، الذي يشهد له ببلوغ مرتبة في الفلسفة تسمح له بإبداء الرأي فيها لها أو عليها والغزالي حين ينقد الفلسفة في كتابه (تهافت الفلاسفة) لا يتوقع من قارئه إلا أن يكون على درجة من العلم بالفلسفة تخول له الوقوف منها بين رجلين: مؤيد وهادم" (الغزالي. أ، 1960، ص17).

نقول وبعد أن اطلع أهل الإسلام على العقائد الوثنية القديمة التي تتناقض مع عقيدتنا الإسلامية، أصبح واجبا على كل مسلم التحلي بالحكمة والمنطق العقلي لتفنيد ودحض هذه الفلسفات الدخيلة، وفي هذا المعنى يقول الغزالي: "فرأيت أن أقدم على بيان تهافتهم كلاما وجيزا مشتملا على حكاية مقاصدهم من علومهم المنطقية والطبيعية والإلهية من غير تمييز

بين الحق منها والباطل بل لا أقصد إلا تفهيم غاية كلامهم من غير تطويل بذكر ما يجري مجرى الحشو والزوائد الخارجة عن المقاصد" (الغزالي. أ، 1936، ص2).

1.3- مفهوم التصوف عند الإمام الغزالي

لما كانت الحاجة ماسة في القرون الأولى من صدر الإسلام إلى تعلم القرآن الكريم والسنّة النبوية وإدراك مضمون معاني النصوص الشرعية وفق منهج علمي صحيح، ما شكّل بدوره حافزا على تعلم الدين وفهمه بإتقان وتبصر مع مراعاة المستجدات التي تحيط بالمجتمع العربي الإسلامي.

فالتصوف عند الغزالي له خصوصيته الفلسفية الإيمانية، يكمن في تجرد القلب لله تعالى، واستحضار الله، وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح. وهذا التعريف أتى به الغزالي في مجال حديثه عن النية وضرورة حضور القلب في الأعمال، وفي مدخل كتاب الإحياء يستخدم التصوف مرادفا لعلم الآخرة ويقسمه إلى علم "علم المعاملة وعلم المكاشفة "وليس المراد بهذا العلم إلاّ علم المعاملة والمعاملة التي كلف العبد العاقل البالغ بها ثلاثة أقسام: اعتقاد، وفعل، وترك" (الغزالي.أ، 2011، ص 56)، ويرى الغزالي أن طريق الصوفية هو المسلك الذي يوصل إلى الحق والذي يتم بالعلم والعمل حيث يقول: "ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، كان حاصل عملهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب من غير الله تعالى وتحليته بذكر الله" (الغزالي.أ، 1988، ص 56-57).

يتضح لنا مما سبق ذكره أن الغزالي يضفي على التصوف الطابع الأخلاقي الذي يلتقي فيه مع بعض مشايخ الصوفية، فهو حاضر أكثر عند الفيلسوف والمؤرخ الإسلامي ابن خلدون (1406/1332م) الذي انشغل بالعلوم الشرعية والتاريخ وعلم الاجتماع، فقد كان متصوفا زاهدا "ويذكر أن التصوف أحد العلوم الشرعية الحادثة في الملّة، وأصله العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخارف الدنيا وزينتها، والانفراد عن الخلق، وهذه الصفات كانت عامة في الصحابة والسلف، ولما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة" (الشامي. أ، 1993، ص99).

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

4- الغزالي والتجربة الصوفية الحدسية الإيمانية

بعد أن حاول الإمام الغزالي حاول تجاوز الكثير من مواقف وآراء المتكلمين والفلاسفة والباطنية التي لم يجد فيها اليقين والوصول إلى الحقيقة التي كان ينشدها ويطلبها، فقد أقبل على التصوف للحصول على السعادة والعلم اليقيني الخالص لله. حيث يقول: "ثم إني لما فرغت من هذه العلوم، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية" (الغزالي.أ، 1967، ص100). ومعنى ذلك أن نقده للفلسفة وعلم الكلام لم يكن مجرد ردة فعل أو نتيجة أطماع دنيوية أو تقربا لجاه أو سلطة سياسية، بل من أجل الكشف وطلب الحقيقة في ذاتها، وهذا لن يتم إلا من خلال تجاوز العوائق ومواجهة مشقة البحث العلمي والتنزه عن مطالب النفس وأهوائها، التي ينتج عنها غياب الحياد والاتفاق حول الحقيقة، "أولئك الذين يعتقدون بالكشف والمعاينة، والاتصال بعالم الملكوت والاطلاع على اللوح المحفوظ وما يحتويه من أسرار، ولكن ما هو الطريق إلى الكشف والمعاينة يقول الغزالي: "وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل" (الغزالي. أ، 1967، ص100).

فقد كانت الغاية واضحة وهي تحصيل العلم اليقيني، لأن هؤلاء يمثلون النور الذي يضيء الطريق أمام الأمة، فهو سلوك حضاري ألهم الأمة نور الهداية والرشاد خوفا من انتشار الجهل والظلم، فمفاتيح التحضر والتمدن كامنة في عظماء الأمة وقيمها وسلوكها المُهذّب الذي يحصل بتقوى الله وإخلاص العمل له، "وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة وحتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله" (الغزالي. أ، 1967، ص100).

ونتيجة لهذا التطور التاريخي الذي عرفه المجتمع الإسلامي، ظل الغزالي يدافع عن الحقيقة النابعة من معاناة فكرية بعيدة عن الغلو والتشدد الديني، لذا قال عنه المستشرق الفرنسي "أرنست رينان": "إنه الوحيد بين الفلاسفة المسلمين الذي انتهج لنفسه طريقا خاصا في التفكير الفلسفي" (الغزالي. أ، 1988، ص8)، وهذه الشهادة توحي لنا أن الإمام قد امتد فكره وفلسفته إلى الغرب الأوروبي، وكان له التأثير المباشر في الفكر الفلسفي الأوروبي الحديث، رغم أن رينان طعن في أصالة الفلسفة العربية الإسلامية، وزعم أنها مكتوبة بلغة عربية وأصلها يوناني، لكنه في الأخير وجد نفسه محاصرا بالفكر الفلسفي الإسلامي الذي تُرجم وانتقل إلى الأوروبيين وخصوصا الغزالي الذي قال عنه أنه فيلسوف تجلت عبقريته من الإسلام.

لهذا كان المحيط الفكري والتقلبات السياسية والاجتماعية منعرجا حاسما في حياة الغزالي الصوفية، إذ يصور لنا حالته النفسية تصويرا بارعا حيث يقول: "فلم أزل أكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم على الخروج من بغداد، ومفارقة تلك الأحوال يوما، وأحل العزم يوما وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليها جند الهوى حملة، فتفترها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني سلاسلها إلى المقام ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل، فلم يبق من العمر إلا القليل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل، فإن لم تستعد الآن للآخرة، فمتى تستعد؟ وإن لم تنقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ويجزم العزم على الهرب والفرار" (الغزالي. أ، 1988، ص59- 60).

وبعد أن كانت رحلته شاقة مع التدريس والدفاع عن الأخلاق والتربية الروحانية التي تُهذب وتُكسب العقل مكانته الصحيحة، وجد نفسه مضطرا لانتهاج سلوك العارفين بالله تعالى. معنى ذلك أن الإمام الغزالي طرح السؤال على نفسه وحاول الإجابة التي وجدها في العبادة والتقرب إلى الله تعالى منتصرا لدينه وعقيدته الربانية. ويعبّر في قوله عن ذلك: "ثم لما أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر، الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب" (الغزالي. أ، 1988، ص60-61).

فأساس وآلية المنهج الصوفي هو العمل لا النظر العقلي المجرد كما عرفناه في الأساليب والطرق الصوفية التي سبقت الإمام الغزالي، فأهل الإسلام الأوائل، أي السلف، كانوا متشبّعين بقيم ونصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، فقد لمسنا في الرسول صلّى الله عليه وسلم منهج القرآن قولا وعملا والتفرغ للعبادة، فمن كمال المنهج الصوفي الذي دعا إليه الإمام الغزالي" أن تخلو بنفسك في زاوية تقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب وتجلس فارغ القلب، مجموع الهم مقبلا بذكرك على الله" (الغزالي. أ، 1964، ص 44).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن سطوع نور العلم الروحاني عند الغزالي كان خطوة ولبنة أساسية في فكره الصوفي والحقيقة التي أرادها طمعا في نيل الرضا والثواب، بعد المجاهدة وشدة التفكير والتأمل العقلي، فاستقر كيانه وهدأت نفسه وذهب قلقه، وأدرك أن منهج التصوف هو طريق الحق واليقين، فبذلك يكون قد تجاوز المشكلات الفكرية والاجتماعية التي واجهته في بداية طريقه.

ويعطينا الغزالي خلاصة عن التصوف حسب ما توصل إليه من خلال مجاهدته ورياضته فيقول: "علمت يقينا أن الصوفية، هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة. وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة. وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به" (عبد الحليم. م، 1980، ص 377-378).

إن القيم الأخلاقية التي دعا إليها الغزالي في فلسفته الصوفية كانت دافعا قويا في تغيير المنهج الصوفي من خلال غرس قيم الانفتاح والتسامح لا الانغلاق على الذات، وضرورة التعاون مع الآخر بتأسيس ثقافة السلم والحوار الحضاري المنفتح تجاه مجتمع تحكمه روابط المحبة والأخوة لا التعصب والتزمت لبعض المعتقدات والأفكار الهدامة التي لا تخدم حاضر هذه الأمة، واستشراف المستقبل بعيون مبصرة وعقول مدركة بنور العلم الإلهي. يقول الغزالي وهو يتحدث عن كتابه (منهاج العابدين إلى رب العالمين) الذي ألفه في أواخر حياته: "فابتهلت إلى من بيده الخلق والأمر أن يوفقني لتصنيف كتاب يقع عليه الإجماع، ويحصل بقراءته الانتفاع، فأجابني إلى ذلك الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وأطلعني على أسرار ذلك" (الغزالي.أ، 2011، ص 37). لذلك استوجب أن يكون له الدور الأمثل في إصلاح عامة الناس وإخراجها من جهلها الذي سيطر على أصحاب العقول المريضة التي تسعى إلى تغليب العواطف والأهواء والميول الذاتية على حساب ما ينفع ويفيد الغير. لذلك فهو يقول:" فإن أروع الناس وأتقاهم وأعلمهم، لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة، بل بعين الرضا بعضهم، وبعين السخط بعضهم" (الشامي.أ، 1993، ص 15).

ومن هنا كانت تجربة الغزالي الصوفية معقدة وصعبة لكنها لم تعثّر عزيمته لنصرة الحق والدين، هاهو ذا الإمام الغزالي يرشدنا ويوجهنا إلى إتباع المنهج الصوفي، مستندا على عقلانيته الفلسفية في شكلها الديني، موفقاً بين العلم النقلي والعلم العقلي. فقد استخلص نتيجة هامة تمثلت في ضرورة العودة إلى الدين، فبفضله تجلت عبقرية الغزالي وتعالى صيته بين الفلاسفة والعلماء في أخذ العلم أو رفضه، "وباسم الدين قبل الغزالي من العلوم ما قبل، وباسمه رد من العلوم ما ورد، فالرياضة علم وثيق الأدلة لا مرية فيه، ولا يصطدم في شيء مع أوليات الفكر، ولكنه يخشى على من يقرؤه أن يمنح كل علوم الفلاسفة هذه الثقة" (سليمان.د، 1965، ص 51).

5- **منهج الغزالي الصوفي والدعوة إلى فلسفة الاعتدال والوسطية**

لقد اعتمد الإمام الغزالي منهج الصوفية وطبقه على نفسه حتى هدأت نفسه وطهر قلبه وتجلت له الحقيقة التي كان يطلبها لذاتها، وأدرك أن طريق الصوفية هو الطريق الذي يمكنه من الحق الذي يبعده عن الشك الذي راوده انطلاقا من انتقاده لمنهج الفلاسفة، فقد ذاق الغزالي تجربة التصوف عن دراية وخبرة ألزمته البحث والتفكير في المسائل التي كان يطرحها ويتساءل حولها فهو يقول: "وهذه حالة يتحققها بالذوق من سلك سبيلها، فمن لم يرزق الذوق فيتقّنها بالتجربة

والتسامع إن كثر معهم الصحبة حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقينا، ومن جالسهم استفاد منهم هذا الإيمان فهم القوم لا يشقى جليسهم" (الغزالي.أ، 1967، ص108).

وبعد أن اختار الإمام الغزالي طريق الصوفية والتزمه منهجا علميا وسلوكا عمليا بعد أن اختبره وجرّبه، لذلك يقول:" وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها وهي أول شروطها، تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله" (الغزالي.أ، 1988، ص62).

إن التميز الذي حظي به الغزالي بموسوعية فكرية ومنهجية، وبعد البحث والتأليف في أصناف المعرفة اهتدى إلى التصوف. ولعل من العوامل التي جعلته يتجه إلى الفكر الصوفي اتصاله المباشر بكتب الصوفية واطلاعه عليها، "إن التصوف نزعة روحية وجدانية، تعتمد على الرياضة النفسية، والإحساس الباطني، والذوق الفردي...إذ هو طريقة في الحياة، قوامها الزهد والتقشف. يرى أصحابها أن حطام الدنيا مصدر الشر والشقاء، فينبذونها ويجهدون في تطهير النفس من أدرانها، رغبة منهم في النجاة من أذى الدنيا، وحرصا على الظفر بسعادة الآخرة" (كمال.ي، 1966، ص 266- 267).

وقد علّل المفكر سليمان دنيا سبب اختيار الإمام الغزالي طريق التصوف منهجا وسلوكا موازاة بالظروف المحيطة به والبيئة التي كان قد عاشها بقوله: "ليس في وسعنا أن نستهين بالظروف الأولى التي أحاطت بالغزالي، فالأب المتصوف، والعم المتصوف، والأخ المتصوف، والأساتذة المتصوفون ونظام الملك المتصوف أو صديق الصوفية والعصر المتصوف كله، وأخيرا نفس الغزالي المشرقة، ذات العاطفة المتدفقة، كل أولئك قد طبع الغزالي بطابع خاص، طابع التدين والحيطة ليوم الجزاء" (سليمان.د، 1965، ص 51).

لقد أدرك الغزالي أهمية احترام الطبيعة الإنسانية والتحرك في إطارها، ومنه دعا إلى الوسطية والاعتدال، وجعل مطالب النفس والجسد تحت سيطرة العقل ليحسن توجيهها نحو خير الإنسان وسعادته الدينية والدنيوية، وقد أشار الغزالي إلى مسألة هامة تتعلق بالتوسط بين الإفراط والتفريط. ويصف لنا الغزالي طلبه للعلم قبل تصوفه فيقول: "وأنا أعلم أني رجعت إلى نشر العلم فما رجعت، فإن الرجوع عود إلى ما كان، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه وأدعو إليه بقولي وعملي، وكان قصدي ونيتي، وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه" (محي الدين.ع، 1983، ص 105).

1.5 دورالعقل وأهميته في فلسفة التصوف عند الغزالي

انطلاقا من تحليلنا لتجربة الإمام الغزالي واستخدامه الطريق الصوفي الذي وجد فيه الأخلاق الكريمة والتسامح والابتعاد عن التعصب الديني والعقلي، فإن وظيفة العقل في الممارسة الصوفية تتوقف أساسا على تحصيل المعارف في شتى العلوم الدينية والفلسفية، أي سعة الاطلاع ومحبة

المعرفة وعدم التضييق على الذات العارفة ومجاهدة النفس والعمل الصادق، أي الإخلاص والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى ثم النظر والتأمل العقلي في مخلوقات الله، بمعنى اليقظة الذهنية والقدرة على مواجهة المشكلات بإدراك وحكمة واختبار ذكي. فالمطلوب هنا في التجربة الصوفية هو تحكيم العقل، أي الابتعاد عن العواطف والميول الشخصية التي تكون عائقا أمام العلم الصحيح، "وإنما الذي ذكرناه في النهي عن المبالغة أردنا أن القلب الصافي المعتدل هو الذي لا يجد حزازة في مثل هذه الأمور" (الغزالي.أ، 2011، المج3، ص431).

بهذا كله لم يهمل الغزالي دور العقل بل وظفّه بطريقة منهجية ومنطقية، ولكنه لم يترك سلطان العقل يطغى على سلطان العقيدة، فقد جعل العقيدة في المنزلة الأولى والعقل في المرتبة الثانية، وهذا ما يثبت لنا فكرة أساسية في فلسفة الغزالي الصوفية تتعلق بمسألة "دينية العقل وعقلية الدين" أي الربط المحكم بين "الدين والعقل"، "وهكذا كان العقل بالنسبة للإمام الغزالي هاديه ومرشده في سلوك طريق التصوف، فلم يقدم على طريق الصوفية إلا بعد أن أتقن العلوم العقلية" (عبد الفتاح.أ، 2000، ص 118).

ولهذا انتقد المتصوفة لذمهم العقل وجحدهم ونكرانهم له وعدم الثقة به ووضعه في دائرة التحجر والجمود، فالعقل هو عين البصيرة ونور الإيمان الذي به يعرف الله تعالى ويعرف صدق رسله وبه يدرك الشرع "أما نور البصيرة الباطنية التي بها يعرف الله تعالى ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله عليه، وإن ذم فما الذي بعده يحمد؟ فإن كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع؟ فإن علم بالعقل المذموم الذي لا يوثق به فيكون الشرع أيضا مذموما، قال الشافعي: "قد أوتيت علما، فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب، فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم" (الغزالي.أ، 2011، المج1، ص94).

6 - المعرفة الكشفية والتربية الخلقية والدعوة إلى التعايش والتسامح في فلسفة الغزالي

إذا أردنا الوقوف على حقيقة المعرفة الكشفية وأداتها القلب ومنهجها الكشف الذي تتجلى فيه الأنوار من نور الله تعالى. قد شبّه القلب بالمرآة التي تعكس صورة الأشياء بدقة حقائق العلوم، "والعلم اليقيني هو أن تعرف أن الشيء بصفة كذا مقترنا بالتصديق بأنه لا يمكن أن لا يكون كذا فإنك لو أخطرت ببالك إمكان الخطأ فيه والذهول عنه لم ينقدح ذلك في نفسك أصلا فإن اقترن به تجوز الخطأ وإمكانه فليس بيقيني" (الغزالي.أ، 1937، ص 159).

بهذا يكون الإمام الغزالي قد وضح الفرق بين المعرفة التي تأتي عن طريق الحواس والمعرفة الكشفية الحدسية التي تأتي من صميم القلب بعد زوال كدر المعاصي والشهوات الحسية والمعنوية، إذ تنكشف له حقائق الأشياء في اللوح المحفوظ. ويحصل هذا العلم بالتأمل والاعتبار لقوله تعالى: "فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ" (سورة الحشر، الآية 2)، والذي يتخذ أسلوب المحاجة العقلية والحوار

البنّاء لغرض التواصل والتفاهم مع الغير أي القدرة على الإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة وعدم نبذ الآخر.

يتبين لنا مما سبق أن العارفين بالله تعالى يتلقون معارفهم بطريق الكشف لا الاستنباط، ومعنى ذلك أن هذه المعارف تحدث دفعة واحدة في القلب عن طريق التلقي والإيمان الرباني مباشرة، فالمعرفة الكشفية إذن هي وسيلة لإدراك الحقيقة التي توصلنا إلى العلم اليقيني، وهي الأمانة التي تشير إليها الآية الكريمة في قوله تعالى: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا" (سورة الأحزاب، الآية 72).

فالمعرفة الصوفية تمثّل لحظة كشف وجودة النفس العاقلة المتعلقة بخالقها، إنها معرفة فوق عقلية لا يحوزها إلا من سلك طريق التصوف، وقد عبّر المفكر المغربي محمد عابد الجابري عن الخاصية التي طبعت تصوف الغزالي كما ورد في قوله: "وتصوف الغزالي، سواء ذلك الذي عبّر عنه بخطاب إسلامي "سُنّي" كما في كتابه "إحياء علوم الدين أو ذلك الذي ترك العنان للخطاب الفلسفي الهرمسي يعرضه كما في كتابه "معارج القدس" و"مشكاة الأنوار" وغيرهما من المؤلفات " (الجابري.ع، 2009، ص 212).

نقول (إذن) أنه يمكن لنا فهم الفكرة الأساسية في الفلسفة الصوفية وأبعادها الدينية والأخلاقية عند الغزالي ومنطلقاتها الدينية، حيث كانت بمثابة الدعامة القوية والأساس المتين الذي يقوي صفات التواضع وتقبل الآخر وعدم احتقاره والطعن في مقوماته الذاتية ومحاولة السيطرة عليه بشتى الوسائل المعنوية والمادية.

لذا وضع لنا الغزالي الطريقة التي تبرز دور التصوف في الدعوة إلى السلم والصفاء ونبذ العنف وإرساء أسس التعايش والتسامح على مستوى الأنا الذي يدين للغير بالمحبة والأخوة لا افتعال الصراع والظلم والعدوانية، لأن صفاء القلب وطهارته من كرم الله على عباده المخلصين والصديقين الأتقياء، فالدعوة قائمة لطهارة القلب وتزكيته. هنالك تفيض الأنوار عليه من قبل الواحد الحق، وإذا وصل المرء إلى هذه الدرجة سُمِّيَ بالكائن العاقل والعارف لذاته وخالقه في أسمى درجات العلى والتقى."اعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره، لا سيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، والرؤية من العين، وكيف لا تشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة؟ (الغزالي.أ، 2011، المجل1، ص304).

إن التصوف الإسلامي وخصوصا عند الغزالي يحمل (إذن) في طياته المعرفة الصادقة التي يزول معها الخلاف والتعصب الذي يُعثّر مسيرتنا الحضارية ويهدم قيمنا الأخلاقية، فما زلنا نعاني صدمة هذا الانحلال الأخلاقي والاغتراب الفكري والمادي الأجنبي الذي أصبحنا عاجزين عن مواجهته

بمختلف الوسائل المشروعة المتاحة لنا، وفق ما ينسجم وثقافتنا وديننا الحنيف الذي يدعو الإنسانية إلى السلم ومحاربة مظاهر البؤس والعنف الذي نكون قد جنيناه على أنفسنا لغياب المرجعية التي نستمد منها معقوليتنا المعرفية والمنهجية. من هنا تظهر معالم الرقي الفكري الصوفي عند الإمام الغزالي في الصدق المعرفي والإخلاص العملي الذي يؤدي بالإنسان إلى الثقة بنفسه وبخالقه والابتعاد عن الأوهام والرذائل. فمن عرف نفسه عرف ربه، لأن الإنسان خير المخلوقات وأكملها تقربا إلا الله تعالى.

نستنتج أن الغزالي أدرك مواطن القوة والضعف في الطريقة الصوفية المستمدة من الخطاب القرآني والتوجيه النبوي، بعدما انكشف نور الله على الإنسان المفكر الذي تحلى بقيم الانفتاح لا التقوقع في دائرة التقليد، فالغزالي يدعو لمعقولية الفكر الصوفي ويسمو به إلى نيل مراتب الكمال الإلهي والصفاء القلبي. "ومصدر الأعمال ومنشؤها صفات القلوب، فالمحمود من الأعمال يصدر عن الأخلاق المحمودة المنجية في الآخرة، والمذموم يصدر من المذموم، وليس يخفى اتصال الجوارح بالقلب" (الغزالي.أ، 2011، المجل1، ص75).

يمكن القول (إذن) أن الانتكاسات والصراعات السياسية . خصوصا التي مزقت كيان الأمة الإسلامية . كانت منعرجا حاسما لنشأة الفلسفة الصوفية التي كان لها الأثر العظيم في التحلي بالحكمة والموعظة الحسنة وتوجيه العقل لخدمة الدين والعمل على إصلاح العقول المتزمتة والمتطرفة، وإعادة بناء الأنا الأخلاقي وفق مقومات فكرية وضوابط شرعية صادقة تساعد على تجاوز ما أفسده الغير.

7- خاتمة:

في نهاية هذا البحث، يمكننا بناء على التحليل السابق صياغة النتائج التالية:

1- أن الغزالي كما وضحنا في المتن بالشرح والتحليل هو فيلسوف بحق، لأنه أنتج فلسفة لها خصوصياتها في مجالات مختلفة، حيث ظهر لنا كأنه مصلح الأمة ومحي الدين ومدافع عنه، حيث انتقد أهم الصراعات والانحرافات التي شهدها عصره، وقدّم نموذجا فكريا رائعا في التصوف والأخلاق والتربية.

2- إن الأثر العظيم الذي تركه الغزالي في التفكير الإسلامي - وخصوصا في التراث الصوفي- قد تجلت فيه قيم التعايش والتسامح والسلام والحوار الثقافي مع الغير في إطار العيش المشترك، فكانت نقطة تحول في الفلسفة الصوفية في ترسيخ معاني التواصل والتفاعل الإيجابي بين الحضارات.

3- محاولة الجمع بين الفلسفة والدين أي بين البرهان والعرفان طلبا للحقيقة، وتفاعل فكر الغزالي عموما مع كل ما كان متداولا من مكونات الثقافة العربية الإسلامية، حيث شكّل فكر الرجل نقطة لقاء مع مذاهب وتيارات فكرية مختلفة كالتصوف والفلسفة والأصول.

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

وبهذا نكتشف أن فيلسوفنا حجة الإسلام أبي حامد الغزالي يؤسس لفلسفة ترسخ معاني وقيم الفكر الصوفي المتسامح الذي يدعو إلى الاعتدال والعلم اليقيني الخالص، من هنا يمكن استنباط الأهمية الفكرية والمنهجية لفلسفة وتجربة الغزالي الصوفية التي تبرز قدرته على التعاطي والتكيف مع المستجدات الفكرية والعلمية وحتى الثقافية التي عرفها المجتمع الإسلامي، والاتصال الثقافي والحضاري بالشعوب الأجنبية المجاورة وخصوصا الاطلاع على التراث الفلسفي اليوناني القديم، فكم هي الحاجة ماسة لمثل هذه الدراسات الفلسفية التي تبرز لنا قمة التفلسف البنّاء الذي يحمل في طياته استقامة العقل الفلسفي، لما يتصف به من تماسك وتناسق منطقي في منهجه وموضوعه.

****

قائمة المصادر والمراجع:

1- الغزالي، أبي حامد. (2011). منهاج العابدين إلى رب العالمين، (الطبعة الرابعة). السعودية: دار المنهاج.

2- الغزالي، أبي حامد. (1972). تهافت الفلاسفة، تحقيق وتقديم سليمان دنيا، (الطبعة السادسة). مصر: دار المعارف.

3- الغزالي، أبي حامد. (1936). مقاصد الفلاسفة في المنطق والحكمة الإلهية والطبيعية. (الطبعة الثانية). مصر: المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر.

4- الغزالي، أبي حامد. (1964). ميزان العمل. حققه سليمان دنيا. (الطبعة الأولى). مصر: دار المعارف.

5- الغزالي، أبي حامد. (1994). إلجام العوام عن علم الكلام ضمن مجموعة رسائل الغزالي. (الطبعة الأولى). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

6- الغزالي، أبي حامد. (1967)، المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال. حقّقه وقدّم له جميل صليبا وكامل عياد، (الطبعة السابعة). بيروت، لبنان: دار الأندلس للطباعة والنشر.

7- الغزالي، أبي حامد. (1961)، منطق تهافت الفلاسفة المسمى معيار العلم، تحقيق سليمان دنيا. مصر: دار المعارف.

8- الغزالي، أبي حامد. (1960)، منطق تهافت الفلاسفة المسمى معيار العلم، تحقيق سليمان دنيا. مصر: دار المعارف.

9- الغزالي، أبي حامد. (1988). مجموعة رسائل الغزالي، وضع حواشيه وأخرج أحاديثه وقدّم له أحمد شمس الدين. (الطبعة الأولى). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

10- الغزالي، أبي حامد. (2011)، إحياء علوم الدين (المجلد الأول). (الطبعة الأولى). جدة، السعودية: دار المنهاج للنشر والتوزيع.

11- الغزالي، أبي حامد. (1937). معيار العلم في فن المنطق، طبع على نفقة محي صبري الكردي، (الطبعة الثانية). مصر: المطبعة العربية.

12- الغزالي، أبي حامد. (2011). إحياء علوم الدين (المجلد الثالث). (الطبعة الأولى). جدة، السعودية: دار المنهاج للنشر والتوزيع.

13- الشامي، أحمد. (1993). أعلام المسلمين الإمام الغزالي حجّة الإسلام ومجدّد المئة الخامسة. (الطبعة الأولى). دمشق، سوريا: دار القلم للطباعة والنشر.

14- السهروردي، شهاب الدين عمر. (1999). عوارف المعارف. (دون.طبعة). القاهرة، مصر: دار المعارف.

15- الطوسي، أبي نصر. (2001). اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي، ضبطه وصحّحه كامل مصطفى الهنداوي. (الطبعة الأولى). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

16- دنيا، سليمان. (1965). الحقيقة في نظر الغزالي. (دون.طبعة). مصر: دار المعارف.

17- محمود، عبد الحليم. (1980). قضية التصوف المنقذ من الضلال. (الطبعة الخامسة). القاهرة، مصر: دار المعارف.

18- محمد سيّد أحمد، عبد الفتاح. (2000). التصوف بين الغزالي وابن تيمية، الطبعة الأولى). مصر: دار الوفاء.

19- اليازجي، كمال. (1966). معالم الفكر العربي في العصر الوسيط، (الطبعة الرابعة). بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.

20- الجابري، محمد عابد. (2009). تكوين العقل العربي. (الطبعة العاشرة). بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

21- عزوز، محي الدين. (1983). اللامعقول وفلسفة الغزالي. (الطبعة الأولى). تونس: الدار العربية للكتاب.